

الثقافة والكتاب والعرب في معرض فرنكفورت

رضوان السيد *

قال لي رئيس اتحاد الناشرين العرب: إننا حاولنا طوال قرابة العام تجنب الظهور بمظهر من يريد إقامة "معرض سياسي" أو مكان للإعلان عن آرائنا السياسية، لكن عندما جئنا إلى فرنكفورت وجدنا أن الجميع يتحدث إلينا حديثاً سياسياً، من المستشار الألماني الذي ما استبعد فكرة الوحدة العربية وإلى نويمان رئيس معرض فرنكفورت للكتاب، الذي اعتبر نفسه معنياً مثلنا بالإصلاح العربي، وبصورة العرب في العالم! فالواقع أنه حتى الذين لا- يعتبرون تقليدياً من أنصار العرب، ضاقوا ذرعاً بضعفنا وتشرذمنا، وصاروا يحسون أن الضعف العربي عبء عليهم وليس ميزة لهم يستطيعون من خلال استغلالها السيطرة علينا، وتحقيق مصالحهم - ومن جهة أخرى يحس الأوروبيون أن الأميركيين ينفردون بالسيطرة، ويريدون أن يكون الجميع مسؤولين عن تحمل الأعباء وبخاصة الأوروبيون، ولهذا يريد منا الأوروبيون إن لم نتوحد أن نتعاون على الأقل لحل مشكلاتنا، ولزيادة القدرة على التواصل مع العالم فحتى العنف أو الإرهاب هو مظهر من مظاهر الضعف، وليس الغضب وحسب، كل هذا قاله لنا المستشار الألماني في خطابه الافتتاحي بمعرض فرنكفورت.

لكن معرض فرنكفورت العالمي للكتاب، والمستمر منذ العام 1947م (قبل الحرب الثانية كان في لايبزيغ) يبقى بالدرجة الأولى مشهداً هائلاً للكتاب وثقافته، وللمعرفة وآلياتها، ويمكن للدول إظهار نهوضها وإمكانياتها بالحلول ضيف شرف على المعرض، وقد فعلت ذلك أكثر الدول الأوروبية أو كبرائها، وآخرها العام الماضي روسيا، أما ما حققه العرب فهو يحدث للمرة الأولى بشكل رسمي، لقد طالبوا بعرض مجال ثقافي، وليس أدب أو فكر أو نشرات دولة، ومفهوم طبعاً أنه عندما تعرض النمسا أو حتى سويسرا أن الثقافة الألمانية تكون هي المعروضة؛ لكن أحداً لا- يصرح بذلك، فألفريده يلينك Elfriede Jelinek التي حصلت على جائزة نوبل، نمساوية، كتبت كل رواياتها بالألمانية وبذلك فهي تنتمي شاءت أم أبت إلى تلك المنطقة الثقافية، شأنها في ذلك شأن دورينمات وماكس فريش السويسريان (من زيوريخ) وهكذا، للمرة الأولى يكون ضيف الشرف ثقافة أو منطقة ثقافية، وقد فهم العرب والألمان ذلك فكانت سلسلة المحاضرات الفكرية والثقافية والأدبية والاجتماعية والسياسية عربية شاملة، وما بدت الخصوصيات البلدانية والاجتماعية إلا في العروض الفنية وبعض الظواهر (الأنثروبولوجية) ثم إنها بدت في أجنحة الدول؛ إذ عرض كل بلد عربي تراثه ومظاهر التقدم في حاضرته (مع الحفاظ على الأصالة!).

نجح العرب إذن في أن يدخلوا موحدين وأن يحاول كل منهم إظهار قدراته وإبداعاته عبر مساحات المعرض، ومساحات جناح بلده، ومساحات اتحاد الناشرين العرب، والمساحات والأجنحة الفردية وقد كان المعروض حوالي العشرة آلاف كتاب ومنشور على المستويات كلها، بالإضافة إلى السلاسل المختلفة من العروض والمحاضرات والندوات والنشاطات التي شارك فيها حوالي الأربعمائة مثقف وكاتب وشاعر وفنان من الوطن العربي، وقد لا تكون الكتب المختارة عظيمة أو أن المحاضرين (حتى بعض المشاهير) ما كانوا جميعاً من المبدعين لكن التنوع الثري ظهر في شتى المجالات والمستويات، وقد اكتشفت أن الألمان ترجموا حوالي المائة رواية وديوان عن العربية في السنوات الخمس الماضية، وأن العرب ترجموا أربعين كتاباً عن الألمانية خلال العقد الماضي، كما اكتشفت أن "المستشرقين" الألمان ما يزالون فعالين – فقد عرضت دور النشر الألمانية زهاء الـ214 كتاباً ألمانياً في موضوعات عربية وإسلامية، ظهرت كلها بعد العام 1990م لكن 35 منها لسوء الحظ عن ابن لادن وجماعته، و16 عن فظاعات صدام حسين، و26 عن الأصولية الإسلامية ومآزق العرب والمسلمين، وهذا فضلاً عن آلاف المقالات العلمية والصحفية منذ العام 2000م وحتى اليوم. لكن الذين يكتبون عن ابن لادن ليسوا في الأكثر من العلماء أو الأكاديميين كما صار واضحاً وهذا ليس خاصاً بألمانيا، بل عرفناه لدى البريطانيين والأميركيين وهكذا فباستثناء فرنسا حيث ما يزال الأكاديميون يستأثرون حتى بالدراسات عن "الإرهاب" أو "التطرف الإسلامي" نجد أن الصحفيين والاستراتيجيين دخلوا معترك المعلومات والآراء عن المتشددين والمتطرفين في سائر أنحاء العرب، وهذا يدل على أن الإسلام صار موضع اهتمام الرأي العام إيجاباً وسلباً فصار كتاب الرأي العام هم الذين يدلون بالآراء بشأنه.

وفي ألمانيا كما في سائر بلاد العالم عامة ورأي عام كما فيها مثقفون وخواص ومسيسون، أما العامة فتدل الاستطلاعات على أن نسبة 56% منهم تملك آراء سلبية بالعرب، و 45% بالمسلمين في حين يفرق المثقفون والمسيسون ويميزون – وإن خشوا جميعاً من الإرهاب الإسلامي، ومن تهمه العداة للسامية، وطلبوا منك عدم إحراجهم بذكر إسرائيل!

وصحيح أن العرب كانوا ضيف الشرف في معرض فرانكفورت للكتاب لكن المساحة التي احتلوها لا تزيد على الـ15% من جغرافية المعرض واهتماماته وأجنحة سائر الثقافات شديدة الاتساع والازدهار، لكن اللغات الفرنسية والانجليزية والاسبانية والإيطالية هي الغالبة، ويحرص الناشر الفرنسيون على أن لا تقل المساحة التي يحتلونها في جغرافية المعرض عن مساحة الأنجلوفون (بريطانيا وأميركا معاً) وكذا الإيطاليون. لكن حتى هؤلاء اهتموا بالثقافة العربية أو أنهم اهتموا بالموضوعات العربية والإسلامية، فلا يخلو جناح (والأجنحة تعرض نماذج قليلة من المنشورات هذا العام أو في النصف الثاني منه بالإضافة إلى قوائم المنشورات طبعاً) من خمسة إلى عشرة كتب من دور النشر الكبرى البارزة.

وإذا كان العرب قد بذلوا جهداً كبيراً للظهور موحدين، ولعرض ثقافتهم الحديثة على أفضل وجوهها؛ فإن محاضريهم بذلوا جهداً لا بأس به في قراءة المشكلات العربية بصراحة، كما سعوا ما وسعهم لإثارة إشكالياتي: التواصل الحضاري، والمفاعيل السلبية لمشكاتي فلسطين والعراق من جهة، والعنف من جهة ثانية، لكن كان واضحاً أن هذا الربط متضمن في عروض العرب كما في عروض الألمان، وكاقدان لعمان جناح خاص زاره آلاف الناس وكان هناك إقبال على العدد الأول (بالانجليزية) من مجلة التسامح وهكذا فهناك حاجة للاهتمام بالجانب التواصل من ثقافتنا وممارساتنا وباللغات الحية في العالم دونما إسفاف أو اتجاه للإعلان الذاتي.

بيد أن هذه الظاهرة ليست أبرز الظواهر بل أبرزها تلك الألفة بين الكتاب ووسائل الاتصال والمعلومات الأخرى. فقد ترسخت لدي قناعة بعد حضور عدة معارض عالمية أن وسائل اتصال العولمة لن تضرب ثقافة الكتاب والكتابة بل إنها أخرى أن تخدمها أو تساعدها في المديين المتوسط والطويل، ويحتاج الأمر على أي حال، إلى تأمل آخر وتفكير آخر في المسألة.

معرض فرانكفورت للكتاب فرصة معتبرة أتاحت للمتقنين العرب، وللناشرين العرب وأرى أن التجربة كانت ناجحة، ليس بمقاييس الطموح بل بمقاييس أوضاعنا الحالية لقد رأيت نادر الفرجاني منسق تقارير التنمية الإنسانية العربية للأعوام الثلاثة الأخيرة، وكان الرجل ساخطاً لتواضع المحاضرات التي يلقيها العرب ويكون أكثر المستمعين فيها عرباً أيضاً وللكتب التي تعرض موضوعات مكررة، وللمسؤولين الثقافيين العرب الذين يتبخثون كأنما هم في عرض سينمائي.. الخ.

وقد يكون أكثر ذلك صحيحاً لكنها تجربة نجحت في الحدود المقبولة، وستستمر في الأعوام المقبلة في عدة اتجاهات وإن لم يكن العرب، ولم تكن ثقافتهم صيف شرف

كما كانوا في هذا العام ينظرون نذهب، ويجب أن نذهب من أجل الاستفادة والتعلم والتخلق بأخلاق العصر وممارساته، وسننجح في النهاية كما نجح غيرنا؛ أو لم يقل المستشار الألماني إن ثقافتنا هي أصل الثقافة الحديثة؟!!